Vol 08 / Issue 32 / june 2024
ISSN 2568-6739 p186-206

Journal of social sciences
Democratic Arabic Center For Strategic, Political & Economic Studies, Germany-Berlin

The sociological research dilemma between the necessity of objectivity and the power of ideology

Mustapha MORTABIT*
Ibn Tofail University, Kenitra- Morocco

mustapha.mortabit@uit.ac.ma
https://orcid.org/0009-0005-4473-6444

Received: 29/10/2023, **Accepted**: 03/06/2024, **Published:** 10/06/2024

Abstract: The objectivity has received significant attention in the humanities and social sciences. Researchers positions between being supportive or opposed to the researchers presence and ideology. Sociological knowledge cannot be produced in isolation from societal issues. If objectivity is a noble goal, can one imagine sociological knowledge that is purely objective and free from ideological backgrounds?

The research a comprehensive scientific perspective in sociological research that reconciles between objectivity as a necessary requirement for understanding the reality of social phenomena, and ideology as a hidden power that directs the thinking and behavior of both the researcher and the researched. It proposes conditions under which solid sociological knowledge can be produced if an ideological, critical, skeptical perspective is adopted

Keywords: Objectivity, Ideology, Sociological Research, Subjectivity, Paradigm

**Corresponding author*

مجلة العلوم الإجتماعية
المركز الديمقراطي العربي ألمانيا-برلين
المجلد:08/العدد 32/جوان 2024
ISSN 2568-6739 ص186-206

مأزق البحث السوسيولوجي بين ضرورة الموضوعية وسلطة الأيديولوجيا

المصطفى مرتبط*

جامعة ابن طفيل القنيطرة– المغرب

mustapha.mortabit@uit.ac.ma

https://orcid.org/0009-0005-4473-6444

تاريخ الاستلام: **2023/10/29** - تاريخ القبول: **2024/06/03** - تاريخ النشر: 2024/06/10

ملخص: حظيت الموضوعية باهتمام بالغ في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فاختلفت مواقف الباحثين بين مؤيد أو معارض لحضور ذاتية الباحث وأيديولوجيته في البحث، فالمعرفة السوسيولوجية لا يمكن إنتاجها بمعزل عن قضايا المجتمع، أو فصلها عن المحددات الاجتماعية التي تشكلها. إذا كانت الموضوعية غاية نبيلة، فهل يمكن تصور معرفة سوسيولوجية موضوعية خالصة خالية من الخلفيات الأيديولوجية؟ يهدف البحث إلى تقديم منظور علمي تكاملي في البحث السوسيولوجي يوفق بين الموضوعية كضرورة لازمة لإدراك حقيقة الظواهر الاجتماعية، والإيديولوجيا كسلطة خفية توجه فكر وسلوك الباحث كما المبحوث. ويقترح الشروط التي على أساسها يمكن إنتاج معرفة سوسيولوجية رصينة إذا ما اعتُمدَ موقفا إيديولوجيا قيميا بمنظور نقدي تشككي إيجابي

الكلمات المفتاحية: الموضوعية، الأيديولوجية، البحث السوسولوجي، الذاتية، براديغم

*المؤلف المرسل

مقدمة

احتلت قضية الموضوعية والذاتية حيزا هاما في البحث السوسيولوجي منذ نشأته، حيث اختلفت وجهات النظر بين مؤيد ومعارض أو متجاهل لحضور ذات الباحث، وهيمنة الخلفيات الإيديولوجية على مجريات النشاط البحثي. وإذا كانت الموضوعية من بين الأهداف النبيلة التي تسعى إليها العلوم الاجتماعية، وتتمثل أساسا في مضاهاة العلوم الطبيعية، فإن هذا المطمح لازال بعيد المنال حتى الآن، ويعزى ذلك إلى القصور النسبي الذي يعتري البحث في العلوم الاجتماعية عموما، بالرغم من التحدي الذي رفعه بعض الرواد المؤسسين للوصول بهذا العلم الجديد (الفيزياء الاجتماعية\علم الاجتماع) إلى المكانة التي وصلت إليها العلوم الطبيعية الآن، على اعتبار أن هذين العلمين (العلوم الطبيعية\ العلوم الاجتماعية) يشتركان في خصيصتين أساسيتين، هما: الحاجة إلى السيطرة على الطبيعة، ثم كشف الناموس الذي ينظم هذه الطبيعة (داخل/خارج: الإنسان/الطبيعة)، على اعتبار أن الطبيعة منظمة ومطردة، حسب تعبير مارشال ووكر "Joseph Marshall Walker".

لذلك، جاءت العلوم الإنسانية والاجتماعية لتهتم بدراسة الإنسان، الكائن الذي يتشكل من كتلة من المشاعر والأحاسيس، وهي متأصلة من الواقع الذي يعيش فيه، مما جعل الأبحاث الاجتماعية تنكب على فهم الإنسان وجوبا من جانبين: الأول خارجي مادي، والثاني داخلي روحي، عكس العلوم الطبيعية التي تقتصر على ما هو مادي فقط، وبمنهج تجريبي استقرائي.

ينبغي التنبيه منذ البداية على أن الموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بالخصوص، تختلف كليا عن مثيلتها في العلوم الطبيعية، لأن ترحيل وإسقاط النموذج الموضوعي في الطبيعيات على البحث السوسيولوجي –كما يفعل ذلك وينادي به فريق من السوسيولوجيين– (الوضعانيين بالخصوص) فوت على هذا البحث فرصا كثيرة، بل وضحى بالعديد من الخصوصيات المميزة للظواهر الاجتماعية. فالنموذج الطبيعي بمنهجه التجريبي ليس دائما السبيل الوحيد القادر على تحقيق الموضوعية في البحث السوسيولوجي، وحتى النتائج المتوصل إليها –من خلاله– تبقى نسبية وغير مطلقة، فالبحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي المسنود بالفضول الاجتماعي يكون في الغالب نابعا من داخل النفس البشرية، وبالتالي فالأحكام

الصادرة عنه ليست دائما صادقة، وهذا ما يسقط الموضوعية في مجال الريبة والشك، مما يفتح الباب أما الأيدويولجيا إلى التسلل إلى عمق البحث السوسيولوجي، وإذا ما اعتبرنا أن شرطية اليقين ليست ممكنة التحقق حتى في العلوم الطبيعية، كما يخبرنا بذلك فقهاؤها، حيث أن ما يبقى ممكنا هو المعرفة الاحتمالية، التي تأتي ممزوجة بالأفكار والمضمرات الإيديولوجية.

ثم إن تشيء الظاهرة الاجتماعية حسب المنظور الوضعاني الدوركايمي منذ بداية تشكل هذا العلم الحديث، قد نزع عنها حقيقتها الكامنة بتجريدها من الجانب الروحي، ذلك الجانب الذي يؤثث ويوجه سلوك وتفكير الباحث والمبحوث في نفس الوقت، بمعنى أن الموضوعية المأمولة في الباحث السوسيولوجي –حسب هذا الاتجاه– تختزل في التجرد المطلق من الذاتية، وبالتالي عدم التحيز والميل إلى جانب معين. فالباحث –حسب هذا المستوى من الفهم– ملزم بإقصاء رأيه في تحري الحقيقة السوسيولوجية، بل يتوجب عليه عدم السماح لأهوائه وعاطفته وعاداته وتقاليده ومكنوناته النفسية أن تؤثر على تفكيره وفي خلاصات ونتائج أبحاثه، والتفسيرات التي يعلن عنها، وهذا أمر صعب المنال حتى الآن.

لذلك، انبرى اتجاه آخر إلى عكس ما ينادي به الوضعانيون بخصوص المبدأ الطبيعي، وهو الاتجاه الماركسي بفرعيه التقليدي والحديث، الذي لا يمكنه النهوض إلا على مسلمات التفسير المادي التاريخي ونظرية الصراع بين الطبقات، والثورة على المبادئ والمسلمات، وبالتالي فالمفاهيم والإجراءات والآليات التي استخدمها، والنظريات المفسرة التي توسل بها هذا الاتجاه، جاءت منذ نشأتها محكومة بمضمرات ذاتية وأخرى إيديولوجية. وهنا تظهر استعمالات الإيديولوجيا في البحث في الحدود اللائقة بها، وعدم الاستغناء عنها بالمرة.

وحتى إن استعمل باحث ما إيديولوجيته لأغراض سيئة واضحة، فإن انتشار نتائج بحثه لا يكون لها تأثير كبير في الأحداث الاجتماعية، لأنها لا تؤثر كأكذوبة وإنما كحقيقة، لهذا السبب أهمل ماركس ونيتشه الكذب الواعي، ومن تم نبها الإثنين إلى أن تأثير الأيديولوجيا يكون من وراء الوعي، وهنا تبرزت الأيديولوجيا ليس كقناع للباحث بقدر ما هي أفقه الذهني، يجد فيه العناصر التي يركب منها أفكاره في صور متنوعة، أي أنها المنظار الذي يرى به ذاته ومجتمعه والكون كله، كما يعلن عن ذلك الباحث عبد الله العروي في مفهوم الأيديولوجيا.

وانطلاقا من الإشكال الذي تناوله العروي، الذي يبحث في كيفية التوفيق بين ضرورة موضوعية المنهج وبين عبادة العقل المجرد، يتولد السؤال الإشكالية الذي تعالجه هذه الورقة البحثية: إلى أي حد يمكن تصور نموذج في البحث السوسيولوجي من خلال بناء توليفة تكاملية توفق بين الموضوعية كضرورة لازمة لإدراك حقيقة الظواهر الاجتماعية على ماهي عليه، تحريا لصدق النتائج، والإيديولوجيا كسلطة خفية مضمرة تؤثث وتوجه فكر وسلوك الباحث كما المبحوث، وتؤثر استتباعا في خلاصات ونتائج الأبحاث؟

ويأتي تناول هذا السؤال الإشكالي في لحظة زمنية فارقة، ليسلط الضوء على العلاقة الجدلية التي تربط الموضوعية بالأيديولوجية في البحث السوسيولوجي بشقيه الكمي والكيفي، وأهميته العلمية تمثل مقتربا يناقش قضية لم يتم الحسم فيها بعد منذ نشأة علم الاجتماع، بحيث تؤرق علماء الاجتماع الغربيين، وبدرجة أكبر علماء الاجتماع العرب، حيث طائفة منهم توارت إلى الخلف لتبحث عن بدائل جديدة، وفي مضامين سلطة الإيديولوجيا وتأثيرها على تفكير الباحث، وبالتالي توجيه مجريات نشاطه البحثي، بالرغم من الأصوات التي تصدع بالتحلي بالموضوعية كضرورة لازمة لصدق النتائج المتوصل إليها، إيمانا منها بأنها لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال التقيد الارثودوكسي بشروط الموضوعية كما وضعها الوضعانيون عند دراسة الظواهر الاجتماعية.

فالهدف من هذه الورقة البحثية يتجلى من خلال فتح نافذة معرفية، تناقش سبل الخروج من الحلقة المفرغة التي تدور فيها الاتجاهات الفكرية المتناحرة، بين تلك الداعية إلى التشبث الخطي بآليات الموضوعية في البحث السوسيولوجي، وتلك المحبذة أو المتغاضية عن حضور الذات الباحثة، وتقترح –الورقة– شروط تفادي الاستقطاب العنيد، والمواقف المتوازية عكسيا التي لا تؤذن بالالتقاء قط، حيث لم تتعرض لثنائية جدلية الموضوعية بالإيديولوجية على دلالاتهما السلبية، بل سلك البحث طريقا جعل من هذه الثنائية مطلبا لحل توفيقي تكاملي، يوازن بين ضرورة التزام الباحث بالموضوعية، بالرغم من تأثره –في الوقت ذاته– بسلطة إيديولوجية التي قد تكون خفية أو صريحة، والتي توجه تفكيره وسلوكه بشكل واع أو غير واع، هذا إذا ما اعتبرنا على الأقل أن الأيديولوجية في جوهرها لا واعية وإن تبدت لنا في شكل واع على حد قول محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي.

أما أهمية الورقة ليست فقط مناقشة العلاقة بين الإيديولوجيا والموضوعية في البحث الاجتماعي، أو الأفضلية بينها، أو الانتصار لواحدة على حساب الأخرى، وإنما أهميتها تتجلى في الاعتراف الصريح والشجاع بضرورتهما معا، بل وحضورهما في أي بحث سوسيولوجي، فأهميتهما المزدوجة قادرة على الكشف عن معرفة علمية مفيدة، بإمكانها أن تقترب أكثر من حقيقة الظواهر والقضايا المدروسة.

وبالتالي جاءت مقاربة هذا السؤال الإشكالي وفق خطة منهجية تناقش **أولا** مواقف وأراء متضاربة لمفكرين وباحثين بخصوص مسألة الموضوعية في علاقتها بالإيديولوجية منذ نشأة السوسيولوجيا، **وثانيا** فحص نقط التلاقي والاختلاف بين هذه الاتجاهات الفكرية، ليخرج المقال **بتعقيب** تخريجي يقترح منظورا تكامليا توفيقيا، هذا إذا ما اعتبرنا أن كل باحث سوسيولوجي لا يستطيع التخلص من حصار أوثان بيكون "Francis Becon": الذاتية والقيمة والإيديولوجية.

أولا: ارتباط نشأة البحث السوسيولوجي بالأيديولوجيا

يقصد بالإيديولوجية ارتباط فكر الباحث بالأصول الاجتماعية للجماعة التي يدرسها. فأبحاث سوسيولوجيا المعرفة تقدم فهما للعلاقة الجدلية بين العلم والإيديولوجية، خصوصا الفهم الذي قدمه كل من ماكس شيلر وكارل مانهايم لنظرية التعيين الاجتماعي للمعرفة العلمية، وهي تعتمد على دعوى هيكل في الطبيعة الجدلية للتاريخ الإنساني، وتتكامل مع الكثير من الفلسفات الماركسية، التي تبرز الطابع النسبي التاريخي للفكر الاجتماعي (باريون، 1971)، أما الموضوعية التي يختزلها فريق من الباحث في الحياد وخلق مسافة بين الذات الباحثة والموضوع المبحوث، وهو تحديد سلبي غير مقنع على اعتبار أن الموضوعية نراها تتحدد من خلال أربع مستويات:

-الأول معرفي: معرفة الأشياء كما هي،

-الثاني نفسي: بحيث تأثر هذه المعرفة بالعوامل النفسية،

-الثالث ثقافي: من خلال خضوع هذه المعرفة والعوامل النفسية إلى القيم والعادات والتقاليد والمناخ الفكري الذي يعيش فيه الباحث والمبحوث،

-الرابع قيمي: القاضي بالتجرد من الأحكام القيمية والأحكام المسبقة السائدة داخل المجتمع.

لذلك، لم تهتد جماعة من الباحثين (الفلاسفة الفرنسيون) إلى حل هذا التناقض، وبالتالي لم تكتمل نظرية تجمع بين فرضية وحدة العقل الإنساني، وبين تنوع الثقافات البشرية إلا في نطاق الفلسفة الألمانية، التي استحدثت مع هيردر Johann Gottfried von Herder مفهوما جديدا للتاريخ، وانطلاقا من هذه الفكرة تفرع مفهوم روح العصر ومنه مفهوم الإيديولوجية كنظرة إلى الكون(العروي، 2012، ص66).

عموما، لاتزال جماعات علمية تسعى جاهدة إلى تخليص البحث السوسيولوجي من حضور الايديولوجيا وتحقيق الموضوعية عبر إقصاء الذات الباحثة، التي نعني بها الذات كشخص مُدْرِك، وليس الذات كفرد شخص مستَقِل، بالرغم من علمها اليقين والثابت أن أي ضرب من ضروب البحث ليس إلا انعكاسا للبيئة الاجتماعية والظروف السياسية والتحولات الاقتصادية السائدة في المجتمع. فالسوسيولوجيا –نفسها– قد ارتبطت منذ نشأتها في بداية القرن 19 بالصراعات الاجتماعية والتحولات الصناعية والسياسية، وامتدت جذورها إلى الثورات البورجوازية والثقافية الكبرى، بل هي التي أطرت تفكير الباحثين، وشكلت إطارا مرجعيا لإنتاجهم العلمي ومختبرا لنظرياتهم، حيث جعل منها هؤلاء أرضية خصبة لمنطلقاتهم الفكرية، ومواقفهم واتجاهاتهم المعرفية (Nagel, 1961, p. 498)، وتحكمت في توجيه نتائج أبحاثهم واجتهاداتهم فيما بعد.

بالرجوع إلى تاريخ السوسيولوجيا، نجد أن كل مرحلة من مراحل تطور هذا العلم، جاءت لتعكس طابعا إيديولوجيا محددا، قد يكون إصلاحيا أو محافظا أو راديكاليا(خزار، 2013، ص113)، ونميز داخله (تاريخ السوسيولوجيا) بين الكتابات السوسيولوجية الوضعية التي انطلقت مع سان سيمون "Saint-Simon" وكونت "Auguste Comte" ودوركايم " David Émile Durkheim" وسبنسر "Herbert Spencer"، وتظهر أيديولوجية كونت في مساندته للقوى المحافظة في المجتمع ورفضه للثورة الاجتماعية على البورجوازية، أما سبينسر فإيديولوجيته تبرز عند تفسيره للتوجهات السياسية للحكومة والدور الوظيفي والاجتماعي للسلطة داخل المجتمع، ففي نظريته العضوية في المماثلة بين المجتمع والكائن العضوي، وعندما عالج تطور السلطة سقط عكس توجهاته عندما وجد نفسه في موقف الدفاع عن نظرية الدولة في الفكر الرأسمالي، لذلك، فماركيوز "Herbert Marcuse": يصرح أن "الوضعية تلزم المفكر الاجتماعي بموقف غير نقدي في مواجهة الوضع القائم، وبالتالي موقف سياسي محافظ لا يمكن

اعتباره بأي حال حيادي"(سمير، 1983، ص165-166)، والكتابات السوسيولوجية الماركسية التي نظر لها كل من ماركس "Karl Marx" وإنجلز "Friedrich Engels"، حيث جاءت أفكارهم مشبعة بإيديولوجيا نقدية راديكالية، تنطلق من الدفاع عن حقوق الطبقة العاملة، أي الانتصار إلى جهة معينة في البحث العلمي، واشتد وطيسها مطلع ستينيات القرن الماضي مع بورديو "Pierre Bourdieu" وباسرون "Jean-Claude Passeron" وغيرهم. واليوم، أصبحنا نتحدث عن اجتهادات ونظريات جديدة آخذة في التموقع ضمن السوسيولوجيا، وأهمها النظرية الإسلامية، والنظرية القومية.

ما يجمع بين هذه الاتجاهات كلها هو الخلفية الأيديولوجية التي تمتح منها، بحيث جاء كل اتجاه كرد فعل على التناقضات التي وقعت فيها النظريات والأبحاث السوسيولوجية السابقة عليه، وتفاوتت جهودها واجتهاداتها على مستوى التحليل والتفسير والفهم والرؤية والتصور للفرد والمجتمع.

وإذا كان علم الاجتماع الغربي عند الوضعيين ذو توجه محافظ، ارتبط بالدفاع عن مصالح الطبقات الحاكمة والبورجوازية والنظام الرأسمالي، من خلال الدعوة إلى المحافظة على الوضع القائم، فإنه عند الماركسيين راديكاليا، جاء للدفاع عن فئة العمال، وطبقات المقهورين والمهمشين من العاطلين والبروليتاريا، وهذا ما جعل هذا العلم يرتهن منذ نشأته بالصفات والأطر الأيديولوجية المتصارعة والمتناقضة داخل المجتمع، وبالتالي فالبحث في موضوعاته وظواهره الاجتماعية، الفردية والجماعية، كان محكوما -منذ البداية- بمرجعيات إيديولوجية، يبدو ذلك ظاهرا في التفسيرات المتحيزة التي قدمتها النظريات الوضعية والبنائية الوظيفية للواقع الاجتماعي، في الوقت الذي كشفت فيه النظرية الماركسية عن تفسير متحيز وواضح عند إبرازها للتناقضات الاجتماعية، وصور السيطرة والاستغلال السائدين داخل المجتمع الصناعي الرأسمالي.

إن الموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية ترتبط -عموما- بمستويين اثنين:

الأول أنطولوجي: تُنَاقَشُ فيه النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية، اللتان تنظران إلى الوقائع الاجتماعية كظواهر مستقلة خارجة عن عقل الباحث، بالرغم من توجه الأولى إلى ما هو ظاهر ومشترك، في الوقت الذي تركز فيه الثانية على الخبرة الذاتية من أفعال ووقائع وتجارب فردية.

الثاني ميثودولوجي: يضم علوم أيديوغرافية وعلوم نوموطيقية (حسب تقسيم فندلباند Wilhelm Windelband)، فإن الأولى تقتصر على وصف الأنماط والحالات الفردية ومقارنتها، أي تنفذ إلى ماهية الأشياء لتفسرها، والثانية تتطلع إلى إقامة القوانين انطلاقا من وصف السلوك(قنصورة، 2007، ص70-71).

ما هو حاصل حتى الآن، يتمثل في الخلط في دلالات ومستويات الموضوعية إلى درجة يصعب معها تحديد موقف الباحثين منها، واستثناء يوجد في دلالتها الأكسيولوجية الضيقة، بمعنى آخر، لكي يكون الباحث موضوعيا عليه أن يبتعد عن تصوراته وآرائه ليتأملها ويفحصها، لا أن يجعل منها منطلقات لأحكامه.

تبقى، إذن، النظريات التي صاغها الرعيل الأول حمالة بمضامين إيديولوجية، لذلك ظهرت الاتجاهات النقدية في علم الاجتماع، وتوجهت إلى الكشف عن الأزمة، الموضوعية/الذاتية/الإيديولوجيا في هذا العلم، غير أنها لم تفلح في تحريره من الطابع الأيديولوجي سواء المحافظ أو الثوري، ففي "قواعد المنهج في علم الاجتماع" حاول دوركايم أن يضع حدا فاصلا بين علم الاجتماع والاتجاهات المذهبية الاجتماعية، وشدد على أن هذا العلم الفتي لن يكون فرديا أو اشتراكيا أو حتى شيوعيا، وهذا ما جعله يسقط في تشييء الظاهرة الاجتماعية. فحتى علم الاجتماع الإسلامي الذي يعتبره المفكرون العرب البديل الواعد لعلم الاجتماع الغربي، جاء هو الآخر مشبعا بمضامين إيديولوجية دينية.

على ضوء ما سبق، ومن خلال تتبع سيرورة البحث السوسيولوجي عموما، نجد أنه يسعى، أولا وأخيرا، إلى تعميق الفهم وتوسيع المعرفة حول الظواهر الاجتماعية، وإلى اقتراح حلول لمشكلة معينة، ووصف أو تفسير ملابسات ظاهرة من الظواهر، فهو يستهدف من وراء نشاطه ذلك، الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي من خلال استثمار نتائجه (Caplow, p. 267)، لهذا يقر الابستيمولوجي بياجي "Jean Piaget" بأن الموضوعية في العلوم الإنسانية صعبة التحقق، لأنها تبحث في الإنسان الذي هو الذات والموضوع في نفس الآن.

ثم إن عقيدة الباحث ومرجعيته أو هويته التي لا يمكن الإعلان عنها صراحة في البحث السوسيولوجي، فنتائجه التي يعلن عنها لا تخصه وحده، المفروض فيها أن تفيد الناس في كل مكان بالعالم. المأمول إذن، هو بحث سوسيولوجي إنساني كوني، لا تهيمن فيه الأطر

الإيديولوجية ومستتبعاتها من المذهبية العقائدية والطائفية، ولا النزعات الذاتية، بحيث تصبح هي الموجه والمتحكم الأساس في الأفكار، لأنه وحتى عندما تتوفر الأسباب لحدوث ظاهرة معينة، فإننا لا نحصل على نفس النتائج في كل مرة تتكرر فيها هذه الأسباب، لأن الباحث السوسيولوجي لا يستطيع أن يعيد تركيب عناصر الظاهرة موضوع البحث كلما أراد أن يعيد دراستها، كما هو الشأن في البحث في العلوم الطبيعية، حيث الباحث هنا يعيد تركيب عناصر تجربته في كل محاولة للفهم، ليحصل على نفس النتائج. بمعنى آخر، –في حالة الباحث السوسيولوجي– تغيب عملية التنبؤ التي توفرها التجربة المخبرية، التي يَعُدُّهَا الطبيعي أساس الموضوعية، لأن علماء الاجتماع عندما يتحدثون عن سوسيولوجيا متحررة من القيم والمواقف والاعتقادات، فهم يعنون أشياء مختلفة عن مقصدياتهم من البحث، وهذا ما يقصده غولدنر "Alvin Ward Gouldner" بقوله: "هناك العديد من علماء الاجتماع الذين يعنون أشياء مختلفة عندما يتحدثون عن علم اجتماعي متحرر من القيم" (غولدنر، 2004).

بناء على ما سبق، يتضح أن علم الاجتماع لا يمكنه أن يتخلص من التحكم الإيديولوجي، وهي حقيقة يؤيدها البحث السوسيولوجي الميداني. الملاحظ أن هذا التحكم لا زال مستمرا إلى اليوم، كما أنه ليس هناك ما يدل على أنه سوف يتخلص منه، بل حتى الذين كانوا ينكرون التوجيه والتحكم الإيديولوجي ويدعون إلى الموضوعية والحياد، قد تراجعوا عن مواقفهم، وقد سلموا بالتوجيه الإيديولوجي للسوسيولوجيا(فضيل، 2009، ص82).

وانطلاقا من نتيجة التحليل أعلاه، يمكن القول أن الاتجاهين سواء الماركسي أو البنائي الوظيفي ومن بعدهما الاتجاهين الإسلامي والقومي، تنطلق جميعها من مقدمات إيديولوجية واضحة، بحيث لا تعبر سوى عن اجتهادات بشرية لازالت في طور التشكيل، وبالطبع فنتائج الأبحاث التي تظف هذه المقاربات والنظريات غالبا ما تكون نتائج نسبية، على اعتبار أن الانطلاقة في البحث السوسيولوجي لابد وأن تكون من الواقع الاجتماعي.

ثم إن الاهتمام المتزايد بالبحث السوسيولوجي في علم الاجتماع، خصوصا في العقود الأخيرة من القرن الماضي، فرض على المفكرين والباحثين في هذا الميدان التخصصي ربط العمل المنهجي بشقيه الكمي والكيفي، بما حققه التقدم التكنولوجي والمعلوميات، وصناعة الذكاء، وما أحرزته علوم الإحصاء والرياضيات من تقدم. فالنظرية السوسيولوجية التي تعد أداة الباحث،

سواء في جمع الوقائع المتعلقة بالظاهرة، أو اختبار الفروض، أو انتقاء المنهج المناسب، أو اختيار الأدوات البحثية الملائمة، تطرح أمامه خيار المفاضلة، وتجعله، بالتالي، على وعي بموقفه الإيديولوجي عند اختياراته تلك(خزار، 2013، ص14)، أضف إلى ذلك، في العصر الحالي (نهاية القرن 20 وبداية القرن21) لازالت الأبحاث السوسيولوجية تحت طلب دولة الرعاية العصرية، ويعني هذا أن التحكم السياسي لازال هو الموجه للبحث العلمي بهذا الميدان التخصصي الحديث، يكفي أن نمثل هنا بالتحكم والتوجيه الإيديولوجي للمؤسسات الرسمية السياسية بأمريكا للهيئات العليا للبحوث: "مجلس البحث الوطني" و"الأكاديمية الوطنية للعلوم" التي تتكون من 24 عضوا يعينون من طرف رئيس الجمهورية، ويمنحون رتبة وزراء وسفراء، حيث تتلقى هذه الهيئات تمويلات ومساعدات مالية لإنجاز مختلف بحوثها، وهذا يعني أن الباحث خاضع لأيديولوجيا الفئة السياسية المسيطرة وإملاءاتها المتحكمة في دواليب الحقل السياسي (بن مبارك)، وهو ما يشير إليه غولدنر في كتابه "الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي"، "The Coming Crisis Of Western Sociology" بقوله: أن البحث السوسيولوجي بنظرياته المتعددة يمجد التطور السريع الواقع في المجتمع الأمريكي، ويدعو إلى ضرورة المحافظة على الاستقرار السياسي والشرعية القائمة حتى لو كانت تقليدية (Gouldner, 1971).

لذلك، يمكن القول أن ما يميز الأبحاث السوسيولوجية –الآن– هو اختلاف النظريات وتصارعها، وهو صراع اتخذ –في الغالب– شكل خطين متوازيين: أحدهما محافظ والثاني راديكالي، يؤديان في نهاية المطاف إلى اتجاهين أيديولوجيين تحكما في نتائج وخلاصات الأبحاث، وحتى إذا كانت الموضوعية –كما يدعي بعض مناصريها– ليست سوى اتباع الباحث لخطوات منهجية محددة سلفا وخارجة عن ذاتيه، فإن هذا البحث يستحيل –في النهاية– إلى نشاط غير مرتبط لا بعبقرية الباحث، ولا بانضوائه تحت توجه فكري معين.

بعد هذا المستوى المتقدم من التحليل في العلاقة بين الإيديولوجية والموضوعية، فما حدود تلاقي الموضوعية بالمضمرات الإيديولوجية في الذات الباحثة أثناء معالجة القضايا والمواضيع السوسيولوجية؟

ثانيا: الموضوعية والايديولوجيا: حدود التلاقي والاختلاف

يصرح دلتاي "Wilhelm Dilthey" بأن العلوم الإنسانية لم تتشكل بعد بالشكل الصحيح، بمعنى أنها لم تؤسس بعد نظاما يمكن من خلاله ترتيب الحقائق الخاصة بطريقة تشبه الحقائق الأخرى المتعلقة بالتجربة، وهي مشكلة تطرح تورط إيديولوجية الباحث في بحثه، بما تشتمل عليه من قيم وأفكار ورؤى، وبما تتضمنه من انحيازات ومشاعر ورغبات، مما يؤدي إلى عدم استقلالية الباحث بإبعاد ذاتيته عما يدرسه من قضايا وظواهر ومشكلات، وعندما تحضر ذاتيته في تناوله لموضوع بحثه، يصدر أحكاما قيمية وأخلاقية على ما يعيه أو يفهمه، وتتلاشى تلك المسافة التي ينبغي أن تكون بينه وبين وقائع بحثه، فتختفي بذلك موضوعيته(زيدان، ص34).

تطغى صيغ المفاضلة بين اعتماد الموضوعية وحضور الإيديولوجية في مرحلة إنجاز البحوث الميدانية، سواء بالأسلوب الكيفي أو الكمي أو التكاملي الذي يجمع بينهما. يصرح فريق من الباحثين بأن دور الباحث في الأخذ بأحد المناهج هو الذي يحدد درجة الموضوعية صعودا ومستوى الإيديولوجية نزولا أو العكس، وهو الذي يرسم نتائج وخلاصات الأبحاث، لذلك، ففي معظم إنتاجات الباحثين نجد أن هؤلاء يسلمون بأن الموضوعية تتحدد من خلال إطار مركب ثلاثي الأبعاد: "الباحث" و"الموضوع المبحوث" و"المنهج المعتمد"، ومن خلال تحري الفصل بينها يمكن أن تتحقق الموضوعية، على اعتبار أن المناهج في العلوم الاجتماعية أدوات علمية، وإذا كانت كذلك، فهي قادرة على إنتاج معرفة موضوعية تهم حقيقة الظواهر الاجتماعية، حتى وإن قامت على الفهم الذاتي في إنتاجها(ناصر، 2016، ص233).

ويرى فريق آخر من الباحثين أن أسلوب تعامل الباحث مع الوثائق والمصادر والمراجع، إن كان يتفق مع أفكاره وأهوائه ورغباته وميولاته فهو يعتبر أيضا أيديولوجيا، ثم إن تأثُّرَ المشاركين في البحث (عينة البحث) بأفكار ووجهات نظر الباحث يعتبر أيضا أيديولوجيا، الأمر الذي يضع نتائج هذا النمط من البحوث موضع شك وريبة، بل وتصبح موضع تساؤل حول مصداقيتها. أما الفريق الثالث فينظر إلى أن غياب الموضوعية في البحث السوسيولوجي يعزى إلى المشارك في البحث (المبحوث) ذاته، بسبب أقوله المخادعة، ومضمرات نفسه ومشاعره المتصنعة أثناء تعامله مع الباحث، لأن المبحوث لا يصرح دائما بما يعتقده أنه الحقيقة، بل قد يخطئ أو يتعمد الخطأ

في الاعتراف والتصريح والجواب حول أسئلة الباحث، نتيجة تأثير بعض القوى التي تتجاوز قدرته على إصدار أحكام صادقة.

فيما يتعلق بالبحث الكمي، تبدو استقلالية الباحث واضحة نسبيا، من خلال المسافة التي يقيمها مع الظواهر المدروسة، حيث يراقبها من بعيد، وتتعزز كثيرا من خلال أدوات البحث التي يتوسل بها –الاستبيان– وأساليب جمع البيانات التي يعتمدها بعد التأكد من صدقها وثباتها، واتباع طرق منتظمة خطية يسترشد بها، بحيث تكون موضوعة ومحددة سلفا قبل إجراء البحث. فمعالجته للمعطيات التي جمعها بالأساليب والأدوات البحثية من عينات مختارة بالطرق العلمية، إن تمت بالتقنيات الإحصائية والطرق الرياضية التي تتوفر فيها نسبة عالية من المصداقية، تجعله يضع نصب عينيه إمكانية تعميم النتائج على حالات مشابهة، وهذا ما يفرض على الباحث الحرص الشديد على إعلان الموضوعية والتجرد من الذاتية في البحث منذ البداية، إلا نه بالرغم من ذلك، تظهر خلفيات ومضمرات أيديولوجية بشكل غير واع لدى الباحث، خصوصا في مرحلة استخلاص النتائج وإصدار الأحكام.

في الأبحاث التي تعتمد على المنهج الكيفي، التي يكون فيها الباحث حاضرا بقوة من خلال الملاحظة بالمشاركة أو المقابلة الموجهة أو المجموعة البؤرية أو غيرها من أساليب وآليات البحث الكيفي، بحيث يكون فاعلا ومنفعلا في الأنشطة والقضايا موضوع الدراسة أو البحث، في تعايش ميداني مع المشاركين في البحث، وفي اتصال مباشر معهم، يراقب سلوكاتهم، بل ويمارسها معهم، ولا يتوسم في الطرق الإحصائية والرياضية تفسيرا للنتائج إلا فيما ندر، ولا يضع نصب عينه تعميمها، بالرغم من التحليل العميق والتفسير الواقعي والفهم الجيد للبيانات والمعطيات الميدانية، والوصف الدقيق للمواقف والاتجاهات، والتشخيص السليم للعلاقات والانفعالات، حيث يظهر الباحث –هنا– غير قادر على التجرد من ذاتيته، والتخلص من أطره الإيديولوجية في التعاطي مع الظواهر الاجتماعية موضوع البحث، بل إديولوجيته تبدو بارزة في نتائج البحث التي يعلن عنها.

وحتى في حالة اعتماد المنهج التكاملي الذي يجمع بين خصائص الأسلوبين الكمي والكيفي، خصوصا إذا ما اعتبرنا رأي المفكر دابس القاضي ب:"أن الكيفي والكمي غير متمايزين"(احجيج، 2019، ص7)، فإن الباحث لا يستطيع التخلص من حضور إيديولوجيته،

لأن الظواهر الاجتماعية تتميز بالتعقد والتشابك، وسرعة التغير، وشديدة التأثر بالعوامل المتجددة، وهنا تبرز مهارة الباحث في تحليل الظواهر الاجتماعية، للإلمام بجميع المتغيرات والملابسات والظروف التي تحكمها، والتي ساهمت في انتشارها، فتارة تختفي ذاتية الباحث من خلال أسلوبه في تفسير وتحليل النتائج المستخلصة من البيانات التي تهم مختلف الظواهر المدروسة، وتارة تطفو إيديولوجيته في أسلوب عند طرحه لجواب حول تساؤلات الدارسة أو البحث.

إن حتمية تسرب أيديولوجية الباحث في البحث السوسيولوجي بوعي أو غير وعي منه، وعدم الدقة الكلية للمناهج المعتمدة، هي نتاج لطبيعة مناهج البحث الاجتماعي، وليست الأسباب المباشرة التي تؤدي إلى الابتعاد عن الموضوعية(ناصر، 2016، ص233)، وبالتالي فعلمية وموضوعية النتائج التي يتوصل إليها الباحث السوسيولوجي في أغلب الأحيان، سواء باعتماد المنهج الكمي أو المنهج الكيفي أو هما معا، ترتبط ارتباطا وثيقا بالبراديغم والسياق الاجتماعي، وتمثلات الذات الباحثة حول موضوع البحث، بحيث توجه عملياته المنطقية والعقلية، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، على اعتبار أن القضايا المبحوثة في السوسيولوجيا لن تخرج عن خيارات ثلاثة:

-فإما أن تكون انعكاسا أيديولوجياً لوضع اجتماعي يضرب في الماضي بجدوره، ويحاول أن يثبت شرعية استمراره في الحاضر،

-أو أن تكون دعوة أو تخطيطاً ليوتوبيا ترسم برنامجاً للمستقبل،

-أو أن تكون تقريرا أو تأييدا مضمرا أو معلنا لما هو واقع قائم في الحاضر(قصنوة، 2007، ص29).

لتوضيح هذه الفكرة، نبحث في العلاقة بين الموضوعية والإيديولوجية انطلاقا مما قدم بيير بورديو من آليات بحثية أخرى في السوسيولوجيا، منها: المشاركة العقلانية في النقاشات، المقارنة بين بحوث تمت في أوساط مختلفة، النقد الذاتي، وغيرها، حيث الباحث هو فاعل اجتماعي، وحامل لثقافة خاصة، وممارساته العلمية مرتبطة بجذوره الثقافية، مما يُصَعِّبُ عليه استخلاص النتائج بموضوعية مطلقة، وقد يقع أحيانا في خطأ تعميم غير واع لتجربة شخصية(خزار، 2013، ص284)، فـ"ليند" "Robert Staughton Lynd" يقول بأن العلوم الاجتماعية هي

أدوات ووسائل لمعالجة التوترات والضغوط التي توجد في الثقافة (Lynd, 1939, p. 114)، وهنا يظهر الارتباط الوثيق بين الموضوعية والأيديولوجية من مدخل الثقافة.

لذلك، فتفسيرات نتائج البحث الميداني لن تخضع أبدا لمنطق واحد ونهائي، ولا تسلك منهجية أرثودوكسية واحدة، حيث يفترض في الباحث السوسيولوجي أن يخضع براديغمه المنهجي ومنهجية اشتغاله وأدوات بحثه إلى إكراهات الوضعية الاجتماعية التي تفرض نفسها عليه، حسب رأي إدغار موران "Edgar Morin"، فالباحث ملزم بتوظيف حدسه وخياله لإدراك الواقع المدروس، وهذا ممكن من خلال تحقيق الانسجام والتوافق بين المنطق العقلي والمنطق الحسي، واعتماد الاستراتيجية المناسبة، نقصد المنهج المعتمد في البحث الذي يحول ذاتية الباحث إلى ذاتية إيجابية تأملية، تتحرى الدقة والموضوعية، فالمعرفة العلمية كيف ما كانت لا بد وأن يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، فبول ريكور في رأيه حول العلوم الإنسانية يقول بأن المعرفة التاريخية يتداخل فيها الذاتي والموضوعي (أباه، 2014).

فإلى أي حد يتحقق هذا التوافق والانسجام بين العقلي والحسي في بناء منظور تكاملي يراعي تمسك الباحث بالموضوعية بالرغم من امتدادات وتأثيرات الخلفيات الأيديولوجية؟

ثالثا: تعقيب تخريجي: نحو منظور تكاملي

منذ ظهور علم الاجتماع والموضوعية من أهم المفاهيم التي كرس العلماء والمفكرون الكثير من وقتهم لها، على اعتبار أنها تعد أحد أهم المبادئ التي يفترض في أي باحث الالتزام بها، فقد ظهرت العديد من التيارات التي شككت في إمكانية التحلي بالموضوعية في علم الاجتماع.

يرى قسم من الباحثين أن الباحث السوسيولوجي لابد وأن تحضر ذاتيته وشخصيته في موضوع بحثه، وقسم آخر يقول عكس ذلك، وما زال النقاش محتدما –إلى الآن– بين الطرفين حول مفاهيم الموضوعية والذاتية والقيمة والإيديولوجية (براهيم، 2017) في البحث السوسيولوجي. فما السبيل إلى الخروج من هذا النقاش المحموم؟ وماهي حدود بناء توليفة تكاملية توفق بين الإيديولوجيا والموضوعية في البحث السوسيولوجي؟

الباحث السوسيولوجي عموما، لا بد وأن يجد نفسه بين ثلاث مستويات، بل هي موجودة بالضرورة، وبحثه لا ينفلت عن إطارها الثلاثي الأبعاد:

–الأول ذاتي يتحدد من خلال علاقة الباحث بموضوع بحثه بوصفه فردا وشخصا من المجتمع،

–الثاني قيمي يتمظهر في شكل الالتزام بمعايير وقيم جماعته،

–الثالث إيديولوجي نابع من ثقافة مجتمعه متوافق ومتوحد معها.

هذه الأبعاد الثلاثة شكلت المنطلق لبناء دعوتنا إلى منظور تكاملي إيجابي بين الأيديولوجية والموضوعية في البحث السوسيولوجي، وهو الذي يجب استحضاره دائما أثناء القيام بأي عمل بحثي.

ما هو واضح حتى الآن، أن المستويات الآنفة تفرز وجوبا ثنائية يجب التعامل معها بحذر شديد: الصواب والخطأ، التي تؤرق تفكير الباحث قبل الشروع في البحث، وتتسلل إلى تصوراته وتحليلاته الاجتماعية دون أن يدري، فلا يستطيع أن ينفلت من سلطتها ليفصل بين ما هو واقعي فعلا وما هو تفسير وتقدير للواقع.

نتحفظ على موقف بعض الباحثين حين ينشدون الموضوعية في النقل الصريح والأمين الاعترافات والآراء والأجوبة حول قضية ما، لأنهم لا يعيرون الانتباه إلى تأثر المشارك في البحث (المبحوث) بالمصالح والمعتقدات والقيم المكتسبة خلال مراحل التنشئة الاجتماعية، أو الْتِفَافِهِ حول أسئلة الباحث بتقديم أجوبة مضللة، ثم إن تأثير مضمرات الباحث يظهر حتى في المعالجة الدقيقة للعمليات الرياضية والإحصائية من طرف الباحثين (Cherns, 1970, p. 75)، وهو نفس الشيء الذي ذهبت إليه ميردال "Alva Reimer Myrdal" بقولها: "العلم عموما لا يستطيع التخلص من التحيز ورفض استخدام نتائجه لتحقيق مأرب سياسية ومنافع علمية" (MYRDAL, 1958, p. 129)، لأن الوقائع التي يتم الاحتكام إليها في البحث العلمي هي محصلة تفاعلات ذاتية البحثين وقيمهم ومعايير أخلاقهم الاجتماعية، والشروط العقائدية التي اكتسبوها في إطار الجماعة بالوقائع والظواهر الاجتماعية.

على مستوى آخر، إن البحث الكيفي يسلم بأن السلوك الإنساني يكون دائما مرتبطا بالبيئة التي تجري فيها نشاطات ومعالم البحث، أي تلك الحالات والوضعيات التي يتواجد فيها المبحوثين. بينما تدعو البحوث الكمية إلى عزل السلوك الإنساني عن المحيط الذي يتواجد فيه الأفراد المعنيين بالبحث، وهذه الدعوة الأخيرة رغم مثاليتها، فإنها صعبة المنال، فالباحث كما المبحوث لا بد في مرحلة ما من البحث ستظهر ذاتيتهما، وهنا تخضع موضوعية الباحث لسلطة

الأيديولوجيا دون أن يعي ذلك، لذلك، نتساءل مع غاوكروغر "Stephen Gaukroger": هل يمكن أن تكون دراسة سلوك الإنسان موضوعية؟

فعندما يركز الباحث أثناء اشتغاله بالمنهج الكمي على البيانات الرقمية، تظهر الموضوعية بوضوح، مبتعدة عن المشاعر والأحاسيس والمكنونات الداخلية، أي أنه (الباحث) يعتمد على قياسات كمية خالية من أحكام القيمة، وبالتالي ففهمه لحقائق الظواهر الاجتماعية يكون من منظور خارجي، وهو فهم يعتريه بعض القصور في غياب تدخل أساليب وتقنيات البحث الكيفي التي تنفذ إلى الداخل، وتتكلف بمعالجة البيانات التي تعكس المشاعر والأحاسيس والأفكار والمعتقدات. لذلك، نجد في أغلب البحوث السوسيولوجية نسبة معتبرة من ميولات واتجاهات الباحث كما المبحوث، بنفس النسبة التي توجد عليها المواقف والمصالح في الحياة الاجتماعية.

ومنه، ألا ينطلق الباحث، سواء في البحث الكمي أو الكيفي، من خلفيات إيديولوجية عند توسله بالمعرفة الحدسية أو الظنية، إذا ما اعتبرنا وجهة نظر هايدغر أن كل: "معرفة حدسية ظنية بما هو أساسي تظل على الدوام أهم من معرفة عن طريق إحصاء ما ليس بأساسي مهما بدا عليها من يقين، ومهما بعثت في النفوس من اطمئنان"(احجيج، 2019، ص14)، خصوصا وأننا أصبحنا نسجل في كل مرة سعي بعض الباحثين في السوسيولوجيا إلى التخلص شيئا فشيئا من مسلمات الفلسفة الوضعية، "التي تتمحور على مستوى المنهج حول فكرة الموضعة، في اتجاه تبني مبادئ ومسلمات الفلسفة الفينومينولوجية وأساسها على الإطلاق فكرتا القصدية والتذاوت"(احجيج، 2019، ص18)، حينها يوضح برنتانو "Franz Brentano" العلاقة بينهما بوصفها تلك "القدرة الخاصة بالنوع الإنساني على بناء تمثلات، وأنها ليست موضوعية، لأنها تحمل إسهام الذات التي تشيدها انطلاقا من رغباتها وإرادتها وعلاقتها بالعالم، ومن ثمة فإن التمثل يكون قصديا بقدر ما يعبر عن المعنى الذي يحمله الفرد على الأشياء"(احجيج، 2019، ص17-18).

بناء على ما سبق، تبدو الدعوة صريحة إلى تجنب التحديد السلبي للموضوعية والقائم على موقف وحكم الباحث، لأنه يمكن أن يكون هناك امتناع عن التموقف أو إصدار حكم ما، فالحكم الموضوعي إذن هو الذي يلتزم صاحبه بالموضوع المحكوم عليه. وعليه فالعلاقة الإيجابية هي التي تُبنَى وتُشيَد بين الذات الباحثة الصادر عنها الحكم والمادة المحكوم عليها التي تشكل

موضوع البحث. وحتى في حالة خلق مسافة بين الباحث والموضوع المبحوث، فهذا الخلق تكون قد سبقته عمليات وافتراضات تتعلق بالوقائع والتفسيرات والإجراءات المنهجية التي سيؤسس عليها الباحث إصدار حكمه على نتائج بحثه.

وإذا كان العلم عموما لا يستطيع الاحتماء ضد التحيز، حيث نجد ماكس فيبر "Maximilian Carl Emil Weber" فطن إلى ذلك جيدا، لذلك لم يهتم بالموضوعية في الحصول على المعلومات والبيانات أو استخلاص النتائج، لأنه كان على وعي بعدم قدرة الباحث على استخدام المناهج السوسيولوجية بشكل خال من الذاتية، فدعا إلى اعتماد منهج "الفهم الذاتي"، لذلك، نتساءل مع سمير أيوب: هل يمكن أن نحذف تصورات الباحث وأفكاره وآرائه ونظرياته وتقييماته الأخلاقية من أجل تحقيق الموضوعية؟ إذا اعتبرنا الجواب بالنفي، فما هي الشروط التي تؤسس للالتزام بالموضوعية في حضور أيديولوجية الباحث؟

الجواب الذي نقدمه يستند إلى جملة من الاعتبارات والشروط التي في الالتزام بها من طرف الباحث ستمكنه –لا محالة– في إنتاج بحث سوسيولوجي قائم على التكامل والتوفيق الإيجابي بين الموضوعية والإيديولوجية، من هذه الاعتبارات:

–الاستعمال الفعال للمناهج والأدوات المستخدمة في جمع المعلومات وتنقيتها من التحيزات المغرضة أو السلبية للباحث مع عدم التحيز لأي رأي، سواء شخصي أو جماعي قد يكون جاهزا مسبقا،

–الابتعاد عن التوجه الإيديولوجي الذي يقصد به الارتباط بمفهوم فكري ينظر إليه على أنه موصل للحقيقة،

–الانتباه إلى أن العلاقات التي تؤسس الظواهر الاجتماعية هي علاقات قيمية بالدرجة الأولى، وتقوم على مفاهيم كيفية، كالواجب والغاية والهدف والدافع والغرض،

–الإعلان منذ البداية عن الخطوات المنهجية والمقدمات العلمية والموضوعية والقيمية جنبا إلى جنب أثناء صياغة المشكلات وطرح التساؤلات والفرضيات،

–اعتبار الحكم الأخلاقي الموضوعي دائما في حاجة لوجود عناصر محددة أو معايير كليانية تجعل هذا الحكم عاما ومشتركا بين الأفراد،

–تجنب التموقف وإصدار أحكام مطلقة وقاطعة حول النتائج التي تم التوصل إليها، مهما كانت طبيعة هذه النتائج، وعند دراسة أي ظاهرة أو مشكلة اجتماعية،

–اعتبار الباحث أن مهمته البحثية في علم الاجتماع ليست مهمة إصلاحية، بل هي مهمة استطلاعية وصفية تقريرية، وأن تحليله منصب على الواقع الاجتماعي المدروس، وليس على الغايات والأهداف.

ما يمكن استنتاجه بعد هذا التعقيب التخريجي فيما يخص حضور ذاتية الباحث وأيديولوجية في البحث الاجتماعي، إلى جانب نشدانه للموضوعية:

–أن اليقين الموضوعي (مع نسبيته) يستند إلى العديد من الأسباب التي تفرض ذاتها على كافة العقول، فعندما تكون القيم الأخلاقية مستقلة عن سلوك الأفراد وآرائهم، فإننا نكون أمام قيم موضوعية بخلفيات أيديولوجية.

–إذا كان الهدف الأسمى للباحث من عمله هو تقديم المساعدة لحل مشكلة أو معضلة اجتماعية، فإن تقييم عمله البحثي حول تسرب أيديولوجيته إليه ومدى اقترابه أو بعده عن الموضوعية يأتي في مرتبة أدنى، بل ويتوارى الجدوى هذا التقييم والحاجة إليه، خصوصا إذا كانت الفائدة المستخلصة من البحث كبيرة.

–الموضوعية في البحث السوسيولوجي ممكنة التحقق إذا ما تم اعتماد موقفا إيديولوجيا قيميا بمنظور نقدي تشككي حولها وحول الشروط والاعتبارات المرتبطة بموضوع البحث، والمتحكمة في مجرياته ونتائجه.

–إن اعتبار الموضوعية والأيديولوجية شكلين مختلفين من التفكير، لا يمكن أن يلتقيا أبدا في الذات الباحثة هو ضرب من التعصب والتموقف السلبي يجب تجنبه والابتعاد عنه.

–الموضوعية والإيديولوجية هما وجهان لنسق فكري واحد، والعلاقة بينهما جدلية تكاملية، ودينامية لا متوقفة، على اعتبار أنه ليس هناك بحث سوسيولوجي بدون جوانب وتأثيرات إيديولوجية.

–المعرفة العلمية عامة، والمعرفة السوسيولوجية خاصة، لا يمكن فهمها وتفسيرها بعيدا عن سيرورة تطور ونمو المجتمع بمحمولاته وقيمه، أو فصلها عن الشروط والمحددات وعناصر البيئة الاجتماعية المنتجة لهما.

لذلك، فالدعوة صريحة إلى فسح المجال لكل من الموضوعية والأيديولوجية في البحث السوسيولوجي وفق الشروط والاعتبارات الآنفة، أي لإرادة الباحث الإيجابية، ولضرورة العناصر التي تحكم الوقائع الاجتماعية، على اعتبار أن الباحث غير قادر على تجاوز ذاتية ورغباته وقيمه ومعتقداته، فهذا ما يميز البحث السوسيولوجي عن نظيره في العلوم الطبيعية والحقة.

خاتمة

إذا كانت الموضوعية تعتبر من الاتجاهات العقلية الذاتية للنظر إلى الأشياء على حقيقتها كما توجد عليه في الواقع، فإنه على الباحث ألا ينظر إليها بطرق منحازة أو ضيقة، وهذا –في الواقع– هو ما يجنبه تشويه نقل الحقيقة، لأن نقل الأشياء على حقيقتها يبقى أمر بالغ الصعوبة، بل من المستحيل تحقيقه.

إن إسهامات وأعمال الباحثين السوسيولوجيين حتى وإن ارتدت ثوبا إيديولوجيا محافظا أو راديكاليا أو غيرهما، فهذا لا ينفي عنها إمكانية تقديم معرفة موضوعية، بالرغم من اختلاف مستوياتها من باحث إلى آخر. لأنه لا يستطيع أي باحث أن يدعي أن معرفته التي أنتجها هي معرفة موضوعية، ومن هو هذا الآخر الذي سيحكم على هذه المعرفة على أنها فعلا موضوعية؟ ما موضوعية حكمه هو أيضا؟ وما هي المعايير التي على أساسها تم إصدار حكمه؟

لذلك، لابد من التحلي بالحذر الابستيمولوجي والتمسك بأسس ومقومات التفكير العلمي وشروط البحث السوسيولوجي، والمقصود هنا منهج التجربة المخبرية، وعدم فتح الباب على مصراعيه لإيديولوجية الباحث وتحيزاته، مع عدم الخضوع لحتمية سلطة هذه الإيديولوجية، على اعتبار أن نتائج الأبحاث تبقى من مسؤولية الباحث، ويجب أن تشكل إضافة علمية يستفاد منها، فيها ما فيها من موضوعية، وفيها ما فيها من إيديولوجيا.

Bibliography

AL-ARWI, Abdullah. (2012). "The Concept of Ideology." Casablanca, Morocco: Arab Cultural Center.

AL-SAYYID OULD ABAH, Abdullah. (2014). "History and Truth According to Paul Ricoeur." Yatafakkaron Magazine, Issue 3.

AYOUB, Samir. (1983). "The Effects of Ideology on Sociology." Beirut: Arab Development Institute.

BARION, Jacob. (1971). "What is Ideology: A Study of the Concept of Ideology and Its Dilemmas." First Edition. Translated by Asad Rzouq. Beirut: Al-Dar Al-Ilmiyah.

BEN MUBARAK, Abdelmajid. (No date). "The Political-Social Issue of Organizing Scientific Research in Algeria." Master's thesis supervised by Shouli Claudine. University of Algiers/

DALIOU, Fadhel, et al. (2009). "Sociology: From Westernization to Indigenization." University of Michigan: Dar Al-Ma'arifa.

GOLDENNER, Alvin. (2004). "The Coming Crisis of Western Sociology." First Edition. Translated by Ali Layla. Cairo: Supreme Council of Culture.

HAJIJ, Hassan, and Faza, Jamal. (2019). "Qualitative Research in Social Sciences: Theories and Applications." First Edition. Al-Matba'a wal-Waraqa al-Wataniya.

IBRAHIM, Abdullah. (2017). "What is Ideology: Science of Ideas or Ideas without Science?" First Edition. Beirut, Lebanon.

KHZAR, Wassila. (2013). "Ideology and Sociology: The Dialectic of Separation and Communication." First Edition. Beirut: Forum for Knowledge.

NASSER, Randa. (Winter – Spring 2016). "Social Sciences and Objectivity." Idafat Journal, Issues 33-34.

QANṢŪAH, Ṣalāḥ. (2007). "Objectivity in the Humanities: A Critical Review of Research Methods." Dar al-Tanwir for Printing and Publishing.

ZAIDAN, Youssef, and a group of authors. (No date). "Issues in the Humanities: Methodological Problematics." Amal Printing and Publishing